مستقبل العالم العربي في القرن الحادي والعشرين

برنارد لويس *

مستقبل العالم العربي في القرن 21، لم يمضِ عليه إلاّ سنوات عدة، فالحديث عنه على سبيل النبأ، كما الحديث عن التاريخ له تبرير آخر، فالمادة والأحداث التي يعرضها التاريخ هي التي تتيح لنا أن نعيش في الحاضر ونتطلع للمستقبل، فكل حديث علمي يبدأ بالمقارنة وبالمقايسة أحياناً بين الماضي والحاضر هو أحياناً بين حدثين في الحاضر، ربما كانت هذه المقايسة والمقارنة التي صارت منهجاً علمياً هي التي تبرر البدء بها.

أول المقارنات المهمة التي أود أن أشير إليها هي المقارنة بين الوعي الجديد الكبير وفهم التاريخ الموجود، عندنا في حضارتنا العربية والإسلامية وعندنا نحن الغربيين المسلمين بخلاف أكثر المجتمعات الأخرى يعطون التاريخ والوعي أهمية جيدة وليس على سبيل الكتابة. وهناك مئات الكتب التي تتحدث عن التاريخ العالمي أو التواريخ المحلية، ومقارنتها بالأمم الأخرى لا نجد هذا الاهتمام نفسه؛ فحضارة عظيمة مثل الحضارة الهندية لا تبدأ الكتابة التاريخية فيها إلا بدخول المسلمين إليها، والمسلمون لا يقتصرون في ذلك على أكثر المؤلفات التي تبدأ بظهور الإسلام، ولكنهم يحاولون التأمل أيضاً فيما قبل الإسلام من الوعي الذي حدث من قيام الدولة والإمبراطورية الإسلامية. هذا الإحساس بالتاريخ ينبغي أن نحفظه في الذهن؛ لأنه تترتب عليه نتائج كبرى للعرب والمسلمين.

في الأيام الأولى، كان هناك اهتمام حقيقي بالتاريخ في إنجلترا، هناك مؤرخون كبار وهناك تلامذة كبار في التاريخ وعناية كبرى للتاريخ ومذاهبه بمعنى أكاديمي؛ لكن على المستوى الشعبي لم يكن هناك وعي بذلك، ويدل على ذلك العبارة التي يكررها كثير من الغربيين والبريطانيين، هذا التاريخ انقضى ومات ولا داعي للتحدث عنه.

في الحرب العراقية الإيرانية طبعاً ما كانت تجري هناك كتابات عن التاريخ؛ ولكن كان كل من الخصمين العراقي والإيراني يستخدم في وسائل إعلامه شرائط تاريخية كبرى يلهب بها مشاعر شعبه ويحمسه تجاه خصمه، أو يصور النصر بصورة سليمة. وفي الحقيقة عندما كان أحد الطرفين يقوم بهذه الدعاية ضد الطرف الآخر ما كان يحتاج لذكر القصة كلها؛ لأن كل الناس يعرفون هذه القصص التاريخية حتى لو كانت بعيدة، كانوا يكتفون بالقول كربلاء أو (يزيد)، فيعرف الجمهور العراقي أو الإيراني ما المقصود بذكر هذا الشخص أو ذاك أو الحدث، هل تستطيعون أن تتصوروا رجلاً سياسياً أو قائداً عسكرياً إنجليزياً أو أمريكياً يستخدم أحداثاً من القرن السابع الميلادي، ويستطيع الجمهور أن يتفهم الأحداث، هذا كله دليل على أهمية التاريخ عندنا مقارنة بقلة أهميته عندهم.

استخدام التاريخ مع اختلاف في فهم هذا التاريخ أو تأويله مثل استخدام العراقيين والإيرانيين لمعركة القادسية، فكلاهما كان يطوعها لأهدافه وللانتصار لرؤيته، يستخدمها العراقي باعتبارها انتصاراً للعرب على العجم، ويستخدمها الإيراني باعتبارها انتصاراً على الكفار في الثورة الأولى في إيران للإسلام.

مثال آخر على استخدام التاريخ وأهمية استخدامه بالنسبة للعرب والمسلمين، ما فعله أسامة بن لادن في إعلامه عدة مرات في بياناته بعد 11سبتمبر 2001م، عندما قال: منذ أكثر من 30 عاماً يعاني المسلمون من الاستعمار والإذلال، ما المقصود بها لو أن غربياً غير مختص بالجلسات، كان ممكن أن يفهم أن الغربيين كانوا يستعمرون المشهد، غير أن المقصود حادثة مهمة يعرفها العرب والمسلمون هي سقوط الدولة العثمانية والتي انهزمت في الحرب العالمية الأولى والتي كانت حليفة للألمان، وانهزمت عام 1918م ثم ألغيت الخلافة عام 1924م، وهذا ما يقصده أسامة بن لادن وهي حدث محفور في ذاكرة كل مسلم ويستطيع أي مسلم أن يذكره بمجرة الإشارة إليه.

هذا الإحساس ولّد لدى المسلمين الشعور بالإحباط والهزيمة، أو بأن حضارتهم لم تعد على سيرتها الأولى «القومية». ماذا نقول في سقوط الدولة العثمانية أو في إلغاء الخلافة، لقد بدأ قبل ذلك بأكثر من قرن فقد كان هنالك حدثان: الحدث الأول ما قامت به الثورة الفرنسية عندما أرسلت جنرال اسمه نابليون بونابرت، استطاع بسهولة دخول مصر عام 1797م، وقتل عددا كبيرا من العثمانيين والمماليك الذين كانوا يقاتلون هناك. ولم تكن مصر أول بلد احتلت من قوَّة أجنبية أوروبية، لكن كانت تجري تلك الأحداث، أحداث الاحتلال أحداث التراجع العثماني أو التراجع الإسلامي في شرق آسيا وآسيا الوسطى القوقاز، وفي الهند وفي أسبانيا وكلها بلاد بعيدة، لكن مصر قلب العالم الإسلامي واحتلت في آخر القرن 18، فكان احتلالها صدمة كبرى، غير أن هنالك صدمة كبرى أخرى، وهي أن الفرنسيين عندما خرجوا من مصر عام 1801 - 1802م، لم يخرجوا بأنفسهم وإنما أخرجهم آدمرال ميتشل بقوة بحرية ليست كبيرة، لذلك نشأ تدريجياً وعي لدى المسلمين أن هذا الصراع استعماري، الذين يحتلون ديار المسلمين مستعمرون أوروبيون، والذين يخرجونهم لصالحهم مستعمرون أوروبيون، فالاستعمار والتحرير كلاهما يحدثان من أوروبيين.

إذا تحدثنا على الاستعمار بمعنى السيطرة المباشرة على بلدان الوطن العربي نرى أن مدته لم تكن طويلة لكن السيطرة بمعنى الهيمنة أو التحكم في المصائر من خلال الوثائق والمعاهدات أو من خلال صراع الدول الكبرى والسيطرة على المصادر الاقتصادية وعلى مسائل الاستيراد والتصدير وحرمان ذلك البلد من سيادة حقيقية المسألة؛ تصبح المسألة أسوأ من ذلك بكثير وتمتد الهيمنة لأكثر من مائة عام، وهذه الهيمنة هي التي ـ وليست فترة الاستعمار المباشر فقط ـ تركت ذلك الوعي الحاد بما حدث ويحدث للحضارة العربية والإسلامية.

يمكن القول: إنّهُ على مدى أكثر من مائة عام ظلت اللعبة واحدة بمعنى صراع قوَّة استعمارية على الهيمنة على المنطقة العربية والعالم الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى لعب القوة المحلية السياسية والاجتماعية مع إحدى تلك القوى الاستعمارية ضد الأخرى من أجل الوصول إلى بعض الاستقلال، فانحازت إلى الفرنسيين في مواجهة البريطانيين، أو إلى البريطانيين في مواجهة الروس، وفي القرن العشرين كانت هناك قوتان استعماريان تتصارعان في الحرب العالمية الأولى، وعندما اختفى المحوران بين الحربين الأولى والثانية ظهر الاتِّحاد السوفيتي فظلت اللعبة واحدة: الغرب في مواجهة الاتِّحاد السوفيتي والقوى المحلية تحاول بلوغ نوع من الاستقلال أو نوع من التحرر عن طريق أن تنحاز إلى أحد الطرفين، بحيث يحميها من الطرف الآخر، ونجد في هذه الحركة نوعا من الاستقلالية والمحلية وبعض الإحساس بالسيادة.

في الثمانينات والتسعينات حدث أمر شديد الهول كالذي حدث منذ مائتي عام لا تجد فيها محورين أو ثلاثة محاور فقد ظهر القطب الأوحد ممثلا في الولايات المتحدة نتيجة لسقوط الاتِّحاد السوفيتي وبذلك وجد أهل المنطقة أنفسهم في حيرة شديدة، لماذا؟ لأن هناك هيمنة جيدة لا يمكن اللعب مع خصم آخر لها من أجل الحصول على نفس الاستقلالية التي كانوا يحصلون عليها من طريق الانحياز إلى الهند أو قوتين أو ثلاث قوى، ولذلك في وسط هذه الحيرة في التسعينات كان هناك من أراد أن يلعب بالطريقة الحربية القديمة، بأن يقول: بل هناك قوَّة أخرى غير الولايات المتحدة، أو قوى يمكن الحديث عنها ويمكن التصرف على أنه ما تزال هناك تعددية قطبية، وبدا لبعض الأوروبيين وبعض العرب أن أوروبا يمكن أن تكون بديلاً عن الاتِّحاد السوفيتي في عملية المحورية هذه في صراع القوى العظمى.

وشاهد ما يعتبره محاولة من أوروبا للحلول محل الاتِّحاد السوفيتي في العالم الإسلامي والعالم العربي اجتماع اسطنبول على مستوى وزراء خارجية منظمة دول المؤتمر الإسلامي والاتِّحاد الأوروبي، والكلام في المؤتمر ما كان مهماً؛ بل كان مملاً؛ ولكن في الحقيقة هذا الاجتماع وما وضعه كل طرف من الطرفيين الموجودين، أو الأطراف الموجودة من الآمال كان ذا أهمية ودلالة شديدين، أعني دلالة البحث عن قطب أعظم آخر إلى جانب الولايات المتحدة.

هنالك مسألة أخرى، مسألة الاتِّحاد السوفيتي الذي يبدو وكأنه يعني المسلمين سقوطه، والمسلمون هم الذين تسببوا في إسقاط الاتِّحاد السوفيتي عندما هزموه في أفغانستان على هذا الأساس المسألة أكثر تركيبا وتعقيداً ممَّا يبدو لأول وهلة من هذه المقايسة والمقارنة التي ذكرناها، فكانت المسألة إذا ليس الاتِّحاد السوفيتي بالحد ذاته؛ بل كيف يمكن إعادته مرة أخرى ما دام قد ذهب واحدٌ من القوتين الكبيرتين، كيف يمكن التعامل مع هذه القوة الجديدة عن طريق إيجاد خصم لها أو مساعدتها.

هوجمت الولايات المتحدة وشنت بالمقابل على الذين هاجموها ما يسمى بالحرب على الإرهاب، الحرب على الإرهاب مبنية على إيديولوجية محددة وأهداف سياسية محددة،

ونترك الحكم في السنوات القادمة للإنجازات وللتاريخ أن يحكم عليها، هل كان هذا الحل صحيحاً للمشكلة العالمية وهل كانت مواجهتها بالحرب على الإرهاب صحيحة أم لا، لكن الذي أود توجيه الانتباه إليه أن هنالك أناساً كثيرين في المنطقة الآن يسمون الولايات المتحدة بالإمبريالية، وأنا أرى أن هذه التسمية خطأ.

في الواقع إنه ينبغي أن نعود إلى مرحلة السير من القرن الماضي عندما كان الاتِّحاد السوفيتي يريد الانسحاب من فرنسا؛ لأنه لم يعد يستطيع البقاء، أما الولايات المتحدة فكانت تريد الانسحاب من مناطق الهيمنة التي كانت تسيطر عليها فقط بسبب الصراع في الحرب الباردة، ليس لأنها عاجزة عن البقاء؛ بل لأنها لا تريد.

إذا تحملنا سقوط الولايات المتحدة عشية سقوط الاتِّحاد السوفيتي فيما بعده نجد أن الشكوى تتحدد وحتى الآن هي الشكوى من عدم أو من نقص الإمبريالية التي فيها وليس من إمبرياليتها بالحد ذاتها، عندما هزمت الولايات المتحدة في بيروت انسحب الأمريكيون ليس عن ضعف؛ ولكن لأنهم كانوا لا يرون ضرورة لهذا الاهتمام الكبير ما دام الاتِّحاد السوفيتي قد ضعف، عندما نسمع اتهامات الولايات المتحدة نرى أنها تتهم بازدواج المقاييس أو تتهم بعدم الحزم في أنها لا تنفذ أهدافها إلى نهاية، وأكبر جرمها هو اختلال المقاييس لديها أو ازدواجية المعايير كما يردد كثير من الناس، وكلتا التهمتين إذا تأملناها هو اتهام الولايات المتحدة بنقص في الإمبريالية، وليس بزيادتها؛ لأنهم يطلبون منها عندما مثلاً تغير على بلد أن تغير على البلد الآخر الذي ارتكب نفس الجريمة، فهم ينزعجون منها لأنها لم تغر على بلدين بدلاً من أن تغير على بلد واحد، وفي الوقت نفسه يتحدثون عن أنها لا تملك العزيمة عندما تقوم بعمل عسكري معين وتواجه الصعوبات بالبقاء هناك لتنفيذ برنامجها إلى آخره، فهؤلاء الناس الذين يتحدثوا عن إمبريالية الولايات المتحدة، عندما ندقق في أقوالهم نجدهم يشكون في الحقيقة من نقص في إمبرياليتهم.

إذا تأملنا كلام مَن يزال يتحدث عن نفس الفكرة من وصف الولايات المتحدة بأنها سياستها كانت إمبريالية، نجده يتحدث عن نموذج آخر عام 1993م عندما تدخلت الولايات إلى الصومال، لماذا تذهب دولة إمبريالية إلى الصومال؟ عن ماذا تبحث؟ ثم حدث أن قتل منهم 90 جنديا فانسحبوا من الصومال، فسر هذا بأحد أمرين: خصوم الولايات المتحدة رأوا أنهم واجهتهم مقاومة شعبية فانسحبوا، أما أنصار تدخل الولايات المتحدة فقد قالوا تدخل الولايات المتحدة في بيروت وكذلك تدخلها في الصومال كان لأسباب إنسانية لإيقاف حرب أهلية لمساعدة المدنيين لجلب الطعام للناس المنقسمين لكن عندما أظهر الشعب اللبناني والشعب الصومالي عدوانية تجاه أولئك الذين جاءوا يحسنون إليهم لم يجد الأمريكيون دافعاً للبقاء هناك وبخاصة أنهم تضرروا، لذلك نجد أن الحدث نفسه كتاريخ ليس هو ما وقع من فعل بل هو تفسير التاريخ وتأويل التاريخ من جانب فروقات المختلفين فحتى الحدث الحاضر يؤول تأويلات مختلفة.

في الحقيقة حتى نصل إلى المرحلة الراهنة ونستطيع التحدث عن مستقبل العالم العربي

علينا أن نبحث المشكلات الرئيسية الخارجية والداخلية ولا يخطر لي أن أعتذر أن أخطر ما يواجه أمن الضفة الآن هاتان المسألتان، مسألة فلسطين ومسألة العراق.

لنبدأ بالمسألة الفلسطينية، إذا كان المقصود من الصراع الفلسطيني الإسرائيلي هو وجود دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيلية فهو أمر مشروع، ولا أعتقد أن إنساناً عاقلا في العالم يجادل في ذلك، تصبح المشكلة إذا فقط مقتصرة على الحدود، وهذا ممكن أن يسوي أيضاً، وهذا ما تتجه إليه الأمور الآن. أما إذا كان المقصود حلول الدولة الفلسطينية محل الكائن الإسرائيلي بمعنى زوال الكائن الإسرائيلي فالمسألة تصبح مسألة وجود وتكون صعبة جداً وبناء على ذلك سيظل الصراع مستمراً ولمدة طويلة، فينبغي أن يكون الأمر واضحاً، فتتحدد السياسة الدولية حول هذين الأمرين الوجود الإسرائيلي أم الفلسطيني.

أما مسألة الحدود، فهي ليست مسألة سهلة لكنها ليست مستحيلة ويمكن بالضبط الدولي وبإرادة السلام أن تضبط الحدود بين الدولتين الفلسطينية والإسرائيلية وتصبح المسألة في النهاية ليست مسألة سياسية بل مسألة تقنية وبالتالي تكون قطعنا شوطا نحو متطلبات تؤدي إلى السلام.

أعتقد أن الحلّ للمشكلة الفلسطينية الإسرائيلية يكمن في أن يتحدث الفلسطينيون والإسرائيليون بعضهم إلى بعض بشكل مباشر ولا يعتمدوا على الوسطاء، حتى لو كان هؤلاء الوسطاء أو الوسيط الأمريكي حسن النية وقويا ويستطيع أن يحقق إنجازاً، ويقول إن الاعتماد على نموذج الصلح الإسرائيلي المصري بناءً على وساطة أمريكية ليس أمراً صحيحاً هو بفرج كنوع من الأسطورة والحقيقة أن الرئيس السادات خاف جداً من تصاعد النفوذ السوفيتي في مصر، ووجد أن الأسهل، ولماذا ما هو عذر الاتِّحاد السوفيتي لدخول مصر وإنشاء قواعد ضد السلطات المصرية أنه يساعده ضد إسرائيل وفي سياق الحرب الباردة بين الاتِّحاد السوفيتي والولايات المتحدة رأى الرئيس السادات أن الصلح مع إسرائيل أسهل بكثير وأحسن بالنسبة للسيادة المصرية من قبول هذه الهيمنة السوفيتية وقد استخدم ليس الولايات المتحدة بل استخدم ملك المغرب أو المغرب نفسه ليس كوسيط بل كمكان للقاء ولذلك عندما عمل خطابه الشهير في الكنيست عام 1977م كانت المفاوضات السرية انتهت تقريبا، وعندها طلب الطرفان التدخل الأمريكي لمساعدة البلدين للسلام، فالحقيقة أن الوسيط مهما كان قوياً يصبح المتخاصمان يتحدث كل منهما إلى الوسيط فيحل محلهما الوسيط في المفاوضات، فلا يجد كل منهما هذا الوسيط يمثله تمثيلاً حقيقياً، الأفضل أن يتحدث الخصوم السياسيون بعضهم إلى بعض وهذا أفضل حل يصلح للفلسطينيين.

لا يمكن أن تكون السياسة الخارجية متناقضة مع السياسة الداخلية، إذا كانت السياسة الداخلية لدولة كبرى معنية ومهتمة بالديمقراطية وحقوق الإنسان فينبغي أن يظهر ويتجلى ذلك الشيء نفسه في سياستها الخارجية أيضا، ولذلك تغيرت سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق، لماذا قاتلت الولايات المتحدة صدام حسين؛ لأنها أمرت أن تقضي على الإرهاب،

ولأنها أرادت أن تنشئ نظاماً للحرية والديمقراطية، وإذا أردنا أن نكون دقيقين وحديثنا صحيحاً متماسكاً لا يمكن تحقيق الحرية والديمقراطية دون إسقاط النظام العراقي السابق.

في الصراع ضد الاستعمار كان المناضلون يستعملون مصطلحين ويستدلون على أحدهما بالآخر باعتبارهما مترادفين أحدهما الحرية والثاني الاستقلال، والواقع أنهما مصطلحان مختلفان وليسا مترادفين بدليل أن كثيرا من الدول التي استقلت عن الاستعمار فإن الأنظمة التي نشأت فيها كانت مستبدة مثل المستعمر.

الفرق بين الاستقلال والاستعمار أنه في عصر الاستقلال يضربك العسكري بالحذاء على الفم، وفي عصر الاستعمار يضربك بالحذاء على الرأس.

كان ينبغي أن نتحدث عن اصطلاحات سياسية واقتصادية تنتظر المنطقة، ينبغي أن تحدث فيها لكي يمكن الحديث عن مستقبل آخر الآن، لكن لأنني سأتحدث عن بعض هذه المشكلات في المحاضرة الثانية، فإنني أريد أن أمضي إلى خاتمة هذه المحاضرة التي ينبغي أن تكون عن المستقبل.

بالنسبة إلى الموارد الاقتصادية، يمكن الحديث بإيجاز عن المورد الرئيسي الذي هو البترول والغاز هذان الموردان يتهددهما أمران: الاستنفاد أو الاستبدال، صحيح أن هذه الموارد الآن كبيرة لكنها ستنفذ في يوم من الأيام، حتى قبل أن تنفذ يمكن أن يحدث أمر آخر أن تستبدل بمصادر للطاقة أكثر سلامة مع البيئة وأقل مشكلة من الناحية السياسية.

وأخيرا أؤكد أن على أهالي المنطقة أن يعملوا معاً متحدين ومتضامنين تلتقي عندهم الثروات والموارد والإمكانيات والقدرات فيعملون على بناءٍ لمستقبلهم ماداموا لم يعملوا بالقدر الكافي لبناء حاضرهم، أما إذا ظلوا منقسمين وبقيت الثروات، ليس فقط سيزداد عندهم الاستشهاديون والانتحاريون عدداً وعدة، بل وستأتي الولايات المتحدة أو غير الولايات المتحدة من أجل سلام العالم وأمنه واستقراره تسيطر وستظل تسيطر على هذا العالم المنقسم؛ لإحداث نوع من الهدوء والتماسك فيه، الخيار لكم أيها الناس في هذه المنطقة فهل تستطيعون استخدام إمكانياتكم بذكائكم وإمكانياتكم لإعادة تلك الحضارة كالحضارات العظيمة القديمة، أو إنشاء حضارة كبرى مثل الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

****

*) أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة برنستون سابقا، وأحد كبار المتخصصين في التاريخ الإسلامي.